كيّف يكونُ الجَسدُ سُخريةً تستهزءُ بأرواحِنا

انسِحابُ أرواح

قصة

محمد حلبي

انسحاب أرواح

تدقيق
عمار سقا
شروق غانم

للكاتب
محمد سامر حلبي

الإهداء

بدايةً..أهدي هذا العمل لنفسي، لروحي التي تشبّعت ظلاماً وآن أوانُها أن تبصر النور، لها وهي التي عاشت أحلك لياليها لتدون مادونته في هذه الرواية..

وإلى أمي وأبي وعائلتي الذين آمنوا بي وبما أصنعه، ولربما لن أُخيّب آمالهم، وسيحصدون بي خير مازرعوا..

وإلى يوتوبيا (رغد سقير) التي حاربت نفسي الملولة وزرعت بها إرادة لاتزحزحها قوةٌ لإتمامها، وأجزم أنه لولاها لما أكتمل، كانت بجانبي في كل خطواتي، لها فضل ذلك بحق، لايسعني الشكر..

وإلى أخي ومعلمي الأستاذ عبد الله بيلونة الذي كان له الأحقيّة الأولى بالإطلاع عليها، والذي دائماً كان مصدر إلهامي الغزير، وتفكّري..

وإلى أختي وابنة عمي نوال حلبي والتي لطالما كانت داعمي الأول في كلِّ شيء..

وإلى فأرتي الصغيرة، فتاتي الروحيّة التي أنهكت لُبّها بتسائلاتي، والتي كان لآرائها تفرداً ورونقاً خاصاً بالنسبة إليّ..

وإلى جميع أصدقائي في فريق مئة كاتب وكاتب الذين كانوا منعطفاً مهمًا في حياتي لوصولي لما أنا عليه الأن، كانت مدةً قصيرة التي جمعتنا قبل أن أسافر وأوّدع لحظاتي معكم، لكنها كانت عمراً جميلاً..

وأيضاً إليك أنت أيها القارىء، لن يكن لهذا العمل معنى بدونك، لكلِّ قصةِ نجاحٍ بدايةً ونهاية، هذه البداية بين يديك، فلتنتهي بك، فأنتَ مسكُ الختام...

المقدمة

لا تجزع فذاك خيال، بل إئلف ففي ذلك معرفةٌ، واعرف ففي ذلك حل لنصف المشكلة، فاسعى لإتمامها.

تستبيحُنا الصراعات كيفما اتّفق لها أن تستبيح، فتدمينا حزناً حدّ الهذيان، وأعدائنا الكثر أقربهم وأعنفهم لنا هم نحن، مجهر صغير ولنكشف ما يختلجُ بالنفس وهي في مستنقع الإذلال، ممتطية كحل أجنحة الأرق، ممسكة بمعصمها سوط البعير، فتدوي صرخته الحادّة في فراغ سحيق، فلا تظلّ هي ولا نظلّ نحن.

ربّما لا يهمكم هذا، ولكنني في أمسّ الحاجة لأتكلّمَ.. يمكنكم أن تظنّوا أنه فعلُ أناني مستبد، أستخدمكم و أهدر وقتكم لتعلموا أشياء لا تهمكم ولا تحضّ على أيّ منفعة لكم، لكن لأخففَ من وطأة هذا الكلام الثقيل على كاهلي، سأتكلّم ؛ سأتكلّم بلا تحفظ ولا مراعاة لمشاعركم

الورديّة، هذا هو الأمر.. نستخدم بعضنا باستمرار، نمارس الأنانية والتسلّط بهمجية مفرطة، نسحق بعضنا ونتلذّذ برائحة الخنوع التي تفوح من أقراننا إغراءً وتعظيماً لنا، ألا يؤسفُكم أن تكونوا يوماً أدوات لشخص ما!؟ أن تكونوا جنوداً مرهونين تحت أمر أحد ما؟ هل هذا ماخططتم له طيلة حياتكم؟ إن كان جوابكم بـ (لا) فقولوا لي إذن: ماذا يجب أن تفعلوا؟ كيف ستقاومون لتكونوا أنتم قادة أنفسكم؟ ربان مصيركم، لكن... أليس هذا دعوة للتسلّط أيضا؟؟..

إن فحوى هذه القصّة كمطرقة تقرع أدمغتكم لتصحوا، فارتدوا الخوذ، وهيا إلى رحلة ملئها فيض أفكاري في ثورتكم..

أتكلّم هنا في صيغة الجمع لكنني لا أوجه كلامي لك أيُّها القارئ، بل أنّني أخاطب الأشباح التي تتلحّف جِلدي ولا تتوقّف عن جَلدي من الداخل، أواجه النار بالنار، والعاصي

بالزند ضرباً إلى أن يمحق.

الفصل الأول

نحيبُ أرواح..

أُطبِقت أبواب الصمت، بعد أن دخلَ شابٌّ في مقتبل عمره بغتةً على غير إذن الى غرفةِ سلفيوس، طائش اللُبّ، قاتم النَفس، حيّث كانت أنفاسه المُتسارعةُ تسبِق إذنهُ بالدخول، وبعد لحظةٍ من الذهول، بدأ يتّضِح من وراء الغُبار المتناثر ملامحُ صَديقٍ قديمٍ وعزيزٍ عليه:

ـبعد كُلّ تلكَ المدّة التي طالت بيننا أتيت أخيراً، بَيد أنّك لاتأتي إلّا بعد حربٍ طاحنة، إلا بعد نكبةٍ تشتّت بها أقطابك..

ـآهٍ لو تعلم ياسلفيوس، أنتَ الصديق الذي لا يروقني التحدث إلّا معه، إن للإنسان حاجاتٌ لا يكفيها الكلام، لكن لا مناص من الحديث مع شخصٍ آخر في خضم هذه الآفات التي تكبّل الإنسان وتلعنه، وأنت ياصديقي رُبّ شخصٍ أَلِفته نفسي وفهما.

-شايٌ؟

-شاي...

ولج الصديقُ على عتبة الباب حائراً، زاخماً بكمٍّ هائلٍ من الأسئلة، فاغتَنم كرسيّاً جانب نافذةٍ كانت تطل على جرفٍ شاهقٍ مقفّر، فبدأت كلماته تنسابُ واحدةً بعد أُخرى مع انسياب الجَرف، واخترق الصمت مُتباطئاً:

ـ في هذا القاع، وبعد أن أخذ منحاً عجيباً بتخيّلاتي، سارَ على منهجٍ لايتصوّره المرء أو يدركُه، أظلمت نفسي بضبابٍ داكن اللون، رأيتُ بين هذا السُخام الأسود أشياءً تبعث القَيء، وتثير الهلع، فدهشت من منظره، وأضناني حُنقي الذي بلغ شفاهي فارتجفت، فأتيت مسرعاً إليك.

ـوكم كنت أتسائل ياصديقي منذُ برهةٍ عن سبب لون

وجهك المُنتقع، وأنفاسك اللاهثة..

ـ كنت قد دخلت في عالمٍ مليءٍ بالفوضى، لايسكنه البشر، يقطنهُ كائناتٌ موحشة، ملامحها تشبه الإنسان عامةً لكن مايميزها أنّها تملك من الضراوة مايجعل جلدها أثخن عشر مرات. كائناتٍ تملك همجيةً مُفرطة لايمكن مساومتهم على شيء، تراهم يجلدون بعضهم بعضاً وتعلوا أفواههم ابتسامةً فيها من اللذة ما يدعو للضحك، وكأنّهم يلعبون ويمرحون، ويستمرّون بالضرب إلى أن يسبحوا بدماء بعضهم بعضا، وصرخات المَجلودين تصدحُ بيّن الأزقة والغابات، فتطير الغُربان خوفاً وجزعاً، ورفيفُ خفق السوط يدوي ويدوي في الأرجاء، وكأنّهُ يصطدم في مسمعي، رعدات جسدي لا تُعد ولاتُحصى، وقد شاق عليّ الشهيقُ كثيراً، سلاسلٌ لاتُلوى عن الصليل، وأشباحٌ تحومُ حول فرائسها بنهمٍ وتحاصرها، ألسنة لهبٍ مضرمة أينما وقع بصرُك، وبينما أتفرّس المشهدَ وتفاصيلهُ بذعرٍ شديدٍ وبملامحٍ مشدوهةٍ،

فجأةً، تُحوّل هذه الكائنات كُلها أنظارها عليّ فبدأت تياراتٌ باردةٌ وساخنةٌ تصبُّ على جسدي الهزيل واحدةً بعد أُخرى، فانتفضتُ كسجادةٍ رثّة، جمعت غبار نفسي المعلّق في الهواء ووجدتني في غرفتي وعلى سريري، ثُم شعرتُ بعدها بقشعريرةٍ وكأن جلدي بدأ باللانسلاخ، فأيقنتُ حينها أنّ أرواحنا قد اكتفت، وأنّنا أسرَفنا بها أيّما إسراف، قد حاربت وانتُزعت من قعر سلامها بعنف، فما ذنبُها بإخفاقاتنا؟ وماذنبُها حتّى نقرعها باتّهاماتٍ باطلة؟ نطفؤها ونُخفيها، ونُجرِّعها البؤس بكلتا أيدينا، فلا تظلُ هي ولا نظلُ نحن...

ـصديقي، كيّف نحقق السلام لأرواحنا وهذا العالم مليءٌ بالشُرور؟

كيّف نهديها لحظات الصِبا والكهل أكل من أطرافنا أجزاءً؟ ما فقدناه لا نعطيه، وما ليّس لنا، حكرٌ علينا، نحن المُهمشون، المُغيّبون عن أحلامهم، المُكسّرة أعينهم

والضالّون.. بُسَطاء نعيش في عمق خيالنا المَنشود القابع في جوفنا والمُتوسّد بيّن جدران هذه الغُرفة المُظلمة، نُجهد من فرط الخيّبة فيُسدل ستار المسرح الذي فاض بضحكاتنا، حيّثُ نبقى شارة النهاية لأحلامنا التي عصفت بها الأقدار. أصوات العواء التي تعلوا خارجاً لا تتناسب مع صفائنا، ثُم أنّ فرط الخيّبة وتعطّشنا المُلح للوصول يجعلنا فريسةً لغريزة الانتقام ونتيجةً لكوننا لا شيّء فلا نجد ماننتقم منهُ آخر المطاف سوى أرواحنا المشبّعة بالويلات وهذا ما يفسّر اللذة اللامتناهية التي نشعر بها في أغوار أنفسنا عند ساعات الليل الكئيبة. هذه حربٌ معنا نحن، مع ذواتنا البريئة، مع شخصنا الضعيف.

يالنا من أوغادٍ مسعورين، لا ننفكّ عن الأذى لمن هُم أضعفُ منا شأناً وأدنى منزلة.

إذاً علينّا التسليم بأنّ مراحل تكوّننا كانت مبنيةً على القتل والسفك والجلد، على احتلال المرتبة العُليا للشر... انظر حولك بتمعُّنٍ يا صديقي العزيز، أيُّ إنسانٍ ذا شأنٍ لم يقتل

ويسفك ويجلد؟! أيُّ إنسانٍ ذا هَيبةٍ لم يُحطم عظام أحد، ولم ينتهك آمال أحد؟! هذه سياسةُ البَقاء، هذه شريعةُ الوصول.

لعلّني يا صاحبي تشعّبتُ كثيراً بالحديث، لكن هذه حقيقةٌ لا يمكن دَحضُها أبداً.

لنعود لصلب موضوعنا المُكسّر جناحيه، ولنتفق أولاً أنّ الفراغ الذي يصنع بأيدينا يشقُّ علينّا حُروباً لا تنضُب، لا تستسلم له، لا تدع لهُ حيّزاً ليتغنّى به في مضجعك، اترك سيل أفكارك الجارفة واهرب بعيداً الى ماوراء حدود هذا العالم إلى ما وراء الواقع... إلى النوم.

_ اهرب!

لقد هربتُ بما فيه الكفاية، قضيت عمراً كاملاً منطوياً على نفسي، متوّسداً قعر الغرفة لا ألوي بشيء، فاستحال كل شيء أمامي محض أقذار، محض خدع لا تنطلي على استنارة تكويني الروحيّ المفدّى، وما نلته هو تخلّف عن زمني، عن أبناء جيلي و أقراني ، عن وطني وعن كلّ انتماء يفترض أنّني أنتمي اليه، إلا أنّني أبيتُ الانتماء، وقضيت سنوات أُصارع التيه والأسئلة، حتّى أظفر بأسئلة جديدة، تؤرقني وتزيد عذاباتي، لماذا أهرب؟ ومن ماذا أهرب؟ هل الهروب حجّة للسعي إلى ماهو أفضل؟ أم جنوح عن الحياة لتحقيق استكانة الروح الأبدية التي ليس لها وجود سوى في أنفسنا الضعيفة؟ هذا جبن، هراء نخادع أنفسنا به.

ولا أقصد تخلّفا بالمعنى الحرفي للكلمة، ما أقصده هو عدم فهم الواقع المتجلّي بالنفاق والشذوذ، وهذا ما لم أجيده يوماً وعلى كل ما لا يجيد الدناءة والانحطاط والخبث

والملعنة ألّا يحلم.. أتعلم؟ إن لم نكن خائفين فماذا سنفعل؟

ـمن الحقائق الشائعة بأن الخوف دائماً ما يكبّل الإنسان ويحاصره، ويجلعه لا يحفل بشيء سوى بضياع الوقت وهو عالق في دوامة التردد اللا متناهية، والتي تقود آخر المطاف إلى الجنون، وإلى ارتكاب أشد الحماقات سوء وفي بعض الأحيان يصبح من الصعب أن يكبت جماحه إذ هو استبد به وتملّكه..

ـ صحيح لاشك في ذلك، لكن على العموم لم أكن أقصد هذه الفكرة عينها، ما أقصده هو أنّنا لا نحفل بشيء بلا خوف، أنّنا نتجرّع الخوف أكلاً وشرباً و استنشاقاً، إن لم نكن نخاف الجوع لما عملنا، وإن لم نكن نخاف الجهل لما درسنا، وإن لم نكن نخاف الوحدة لما تزوجنا و أنجبنا أطفالاً لنجزّهم ظلماً وجرماً لاحتمال أشدّ أنواع الشقاء

والبؤس، ويتكرّر هذا السيناريو مرّات ومرّات، إلى أن ينقلب العالم رأساً على عقب، فيتكاثرون بأعداد مهولة يلطمون بعضهم وينتهكون بعضهم لفرض تحكمهم وسيطرتهم على أقرانهم، فلا تنضب أسلحتهم ولا تهدأ، وتسقى مزارعهم بالدماء فتثمر جوعاً ومأساة. ما أريد للعالم أن يفهمه، هو أن هذه النسخ المصاغة من البشر قد مللنا منها، تعبنا من فهمها وأشك أننا فهمناها، هذا التبجّح المخيف لا معنى له ولا أصل، كفقاعةٍ مملوءةٍ بالهواء، ما نحتاجه حقّاً هو إنسان يولد بفكرة يقلب العالم ويرتقي به، وعليك أنت كأبٍّ ألّا تنجبَ إلّا بعد تحقيق السمو الفكري الذي يتيح إليك إنجاب كائنات لا تقل شأناً عن قيمتك العقلية، لخلق جيل يقود أمة، خلق جيل يعتلي جباه العالم ويقوده نحو القمم، حبذا لو يحدث هذا دائماً، حيث أنه نادراً ما يحدث، لكن على الأقل، على الأقل ياصديقي يجب أن تزرع بأبنائك كلّ الخصال الحسنة، أن تراقب كلامهم وتصرفاتهم وتفكّر في عواقب أفعالهم على المدى البعيد، وإذا أخطأوا أن تعاقبهم

وإذا أحسنوا أن تكافئهم، والأهم ألا تملّ من ذلك مهما اقترفوا من ذنوب ومهما أحسنوا، إذ أنّه سيزداد الوضع سوء، ولن يردعهم رادع باقتراف كل أنواع الشرور، في هذا الحال ستكون قد أنجبت شريراً أخر إلى هذا العالم، ولا نريد مزيداً من الشر، مانريده حقّاً هو السلام، فالرفاه ليس الشرط الجازم للزواج، هذا العرف السائد هو الذي شوه المجتمع وقاده للضلال، فأجبرنا على احتمال حثالة البشر، عاهات الناس ومخلفاتهم الرذيلة، يجب أن نظمأ لنتكوّن، لنصنع المجد وليس لأجل غرائزنا الحيوانية، ليس لأجل أن نفرّغ مورثاتنا في رحم امرأة لا حول لها ولا قوة لاقتياد جيل ومنعه من الشراد.

خيم سكون مقلق في رأس سيلفيوس من سفك كلام أغويرو وعنفها، فخنقته كلماته وعلقت في حنجرته، فما إن لبث بضع دقائق من الصمت حتى تمتم يقول:

ـانظر ياصديقي، أترى سور القلعة الضخمة المشيّدة هناك..

شاح أغويرو بناظريه مخترقاً ببصره النافذة التي كان يجلس بالقرب منها، فوجد قلعة ضخمة بعيدة، تتوسّط المدينة المطلّة من هذا الجرف الشاهق، فأومى برأسه علامة على الإجابة بنعم، فتابع سيلفيوس كلامه:

ـ هذه القلعة ياصاحبي بنوها البشر، بشر مثلنا لا أكثر ولا أقل، بنوها بغرض الدفاع عن أنفسهم من غارات العدو، الطامع في سلب خيرات البلاد ومافيها من ثروات، والسؤال ياصديقي هو إن كانت هذه القلعة هي وسيلة دفاعية للبشر ضد بعضهم، فما هي الوسيلة الدفاعية المثلى للبشر ضد أرواحهم؟ ماهي الوسيلة التي تبطل كلّ غارات أرواحنا المسمومة التي لا تدع لنا حيّزاً للراحة؟ والتي تخيّم علينا ليلاً وتديننا بغير رحمة؟.

في هذه اللحظة، في هذه اللحظة تحديداً، زاغت نواظر أغويرو زاهداً يستلّهم فكرة لطالمة كانت ترواده من حين إلى حين، لطالما كانت محطّة لشعوره بالطمأنينة، كانت بمثابة سحر إلهي ينتشله من قاع بؤسه القاتم، ويوقفه شامخاً على مشارف النور. فتمتم يقول بينه وبين نفسه: " يَبدو أنّه ما من وسيلة، ما من سبيل، العقل لايهدأ، والروح تنتحب، ونواقيس هذه الساعة بطيئةٌ جدّاً، يكاد الصبر ينفجر، لنختصر هذه المعاناة، ولتنحصر فوضى النفس في قوارير الخلاص، لنظفر إلى بِدايةٍ جديدة، بِداية ما بعد الانتفاض من عُصبة الأوهام، بداية تسلُل النور إلى أعمق نُقطة تَثوبُ فيها الروح وتأِن، نهاية عصر الخطيئة، بداية النور." فتردد صدى خافت ملح في داخله يهمس : " إلى السكينة... إلى النور... إلى السكينة... إلى النور.... إلى الخلاص".

الفصل الثاني

الخلاص..

ـأتعلمُ ياصديقي، ذات ليلة منذ بضعة أيّام، استيقظتُ على حُلم غريب جدّاً بقدر ما كان غريباً كان يشعرني بكمٍّ هائل من الطمأنينة، يغمرني بالوجد من رأسي إلى أخمص قدميّ، واستيقظت حينها أبتسم، تخيل!!! استيقظت مبتسماً وما أندر هذه اللحظات، رأيت أنّني أعتلي ناصية أثيّريّة، معلّقاً في الهواء ومن أمامي أرض شاسعة يحوّطها أشجار القيقب وهي في أوجّ زهرتها تلوّح إليّ راقصة مزهوّة يتدلّى عبقها المندثر فى أرجاء مقبرة مبتهجة، أتصدّق؟! لقد كانت مبتهجة لم نعتدْ يوماً أن تتبع كلمة (المقبرة) بهذه الصفة، ما اعتدنا عليه هو أن تكون دائما كئيبة وحزينة وتشعرنا بالخشية، لكنها كانت مبتهجة وتثير الغبطة في النفس أقسم لك هذا، حيث أنني وبينما كنت أقلّب بصري التائه في هذا الكم من اللحود المتتالية والمصفوفة صفّاً صفّا، كنت أسمع قهقهاتهم وضحكاتهم وكأنّهم مجتمعون في حفلة شاي، إذ أنّني كنت أسمع أيضاً أصوات رنين السماور وقرقعة الفناجين، كانوا يتحدّثون بلغط مجلجل، ولكنني أيقنت بعد

طول استراق للسمع أنّهم كانوا يرحبّون ويبتهلون بامرئ نفذ إليهم بعد أن عانى كل أنواع البؤس والشقاء، يرحبّون به بقلب غفير وبصدر متّسع، وبينما هم يتحدّثون بنهم وفي الوقت ذاته علا صوت أحدهم فأسكت الجميع مرحِّباً بالصديق الجديد:

ـ "يا أهلاً بجيراننا الجدد، يا مرحباً بسكّاننا الأعزّاء، هنا مثواكم الأخير، حيث الارتقاء بالحقيقة واضمحلال الأكاذيب، حيث التغلغل بالنعيم، وانجلاء النفس من غياهب الشرِّ الأعظم من غرائزها وشهواتها وانحدارها لأكوام الأقذار المشبّعة بفتنة الأهواء، هنا دار الحق، دار الآخرة، هنا دار خلاص الروح من دناسة الجسد، هنا دار الخلود، فاهدأوا واستكنّوا، ولتطمئن نفوسكم النيّرة، فيكفيها ما عصفت بها لعنة الحياة، يكفيها انطفاء، يكفيها جزع، أما آن أوانها أن تأمر؟ أما آن أوانها أن تشمخ في أقاصي الراحة الأبدية؟ فلتتحرّروا يا أصدقائي، فلتتحرّروا."...

فهتفوا جميعاً بصوت واحد يثير الخشية في النفس: "إلى الحرية، إلى السكينة، إلى النور، إلى الخلاص...".

ـ ما أغرب هذا الحلم!! والأغرب من ذلك هو طغيان الطمأنينة على الكآبة، إذا نظرنا وتفحّصنا وحاولنا شرح الحلم يمكننا استخلاص المعنى الأزلي للموت، المعنى الذي ينتهي عنده كل شقاء البشر، أو يمكن أن تكون المعاناة التي خلّفتها هذه الحياة في نفسك بدأت تتذرك بالموت لشدّة ما عانيت وما قاسيت في صراعك الموحش معها في ساعات الليل، لكن يبقى القاسم المشترك هو أن فكرة الموت لا تغدو أن تصبح مسلّمة مطمئنة في كلتا الحالتين، الموت يا صديقي هو الخلاص من المهمِّ دائماً نحن البشر أن نفكّر بالموت بشكل متكرّر، لكن على ألّا تكون مصدر فزع وهلع، على العكس تماماً يجب أن نفكّر فيه على أنّه السبيل الذي ينتهي عنده كلّ شيء، لتبلغ فكرة اكتفائنا من الحياة مكاناً راسخاً في عقولنا وأن نسلّم على أن كلّ شيء

نعاني منه أو نعاني لأجله مصيره الفناء كما نحن وهذا قد يخفّف علينا قليلاً عبء شهواتنا وملذّاتنا التي استبدّت بنا حتّى بلغت ذروتها، لكي نكف عن تكريس اهتماماتنا بأشياء قد لا تكون غداً، فالموازنة بين الأيديولوجيات التي نزرعها لأنفسنا تكون دائماً عند التفكير في اللحظات التي تركد فيها ضريحاً تشهد مراسم دفنك، حيث يتبدّد كلّ شيء في جوفك وأمام ناظريك، ولا يعود أيّ شيء يلفت الأنظار بالنسبة لك سوى ما بعد الموت.

كانت هذه آخر كلمة خرجت من فم سيلفيوس وبعدها ساد صمت مطبق، صمت أشبه بالرماد بعد نار مضرمة، ثم وقف أغويرو ثملاً من فرط الشرب من كؤوس الفلسفة، وسار متمايلاً نحو الباب وفتحه، ناداه صاحبه كثيراً لكن لم يجب، ودحرج قدميه خارجاً وكأنّ روحه تنهكه إلى أن وصل إلى حافة الجرف أيّ أن ما يفصله عن حدفه هو بضعة سانتيمترات، وقف يفكّر ويفكّر، وتسحبه غريزة

البقاء إلى الخلف كالمغناطيس لكنّه لا يتزحزح فيندفع قلبه وينتفض بين قدميه ويعود إلى أن هدأ و استكن واعتاد على ما هو عليه الآن من خطر.

نظر أغويرو إلى الخلف فوجد صديقه يقف خلفه محموماً مشدوهاً مختلطة عليه الأحرف فلا ينبث بكلمة، فأعاد أنظاره إلى أسفل الجرف وانتحر.... سمع صديقه صوت ارتطام جثّته في قعر الهاوية فترأت على أسماعه قرع طبول تنفث غضباً مسعوراً، لم يكن يصدّق ما حدث، ولم يكن ليتخيّل أحداً كيف أن الجسد ليس إلا سخرية تستهزئ بأرواحنا..

قذف بنفسه متخلّياً عما تقدّم من عمره غير مكترث، تاركاً خلفه صديقه يبلغ من الصدمة للحد الذي لا حد له، وكم سيلقى هذا الصديق المسكين من ألم ولأن الصديقين كانا حميمين جدّاً ومن واجب الصديق الحقيقي أن يقف

جانب صديقه ويدعمه بأسوأ حالاته، فسرعان ما نشب صراع موحش في نفس سيلفيوس بين شعوره بالذنب وأنّه هو السبب في مقتل أغويرو لأنّه لم يستطع أن يسري عنه آلامه، بل على العكس زاد الثقل ثقلين بتحليلاته الفلسفية السوداوية وبين شعوره بالفقد، فقد شخص لا تقوى نفسه على الانجلاء منه، فهو صديقه الوحيد والمخلص منذ أن كانوا أطفالاً.

بدأت ركابه تصطكّ، وبدأ جسده يفقد اتزانه، كانت ملامح وجهه لا تدّل على إنسان، أقرب إلى ميّت من أن تكون إلى حيّ، مفتوح ملء شدقيه، وجهه شاحب مرتجف لا يعرف الثبات، عيونه بازغة مولولة، سقط أرضاً بغير شعور حتّى أنّه لم يكن يعي أن يقترب من الجرف وينظر إلى صديقه وإلى أين أودت به الحال، ظلّ قرابة النصف ساعة ملقى على الأرض بغير حراك لا يعرف للنهوض سبيل، وبعد أن نجح بالوقوف واستجمع وعيه المندثر حوله اقترب بحذر مسرف وهو يكذّب ما رأى، وأذ بحبال الكذب تلّتف حوله وتذوّقه

مرارة الحقيقة، متجرّدة عارية، بأصعب رؤى وأفتكها على العقل، نزل مهرولا كالمسعور ليلتقي بأشلاء صديق، ويندفع إلى أحضانه لآخر مرّة يجمع بها أضغاث ذكريات ويخبّئها في جعبته لآخر مرّة...

الفصل الثالث

ذنبٌ بلا ذنب..

في اليوم التالي، وعند الشروع بمراسم الدفن، نظر سيلفيوس حوله ولم يرَ من يعاونه بحمل جثمان صديقه، خاصّة وأنّه كان هو الآخر جثّة هامدة تشهق وتزفر، لم يكن معه سوى جار صديقه الذي يقطن في الشقّة المجاورة وصاحب البقالة الذي اعتاد أغويرو شراء حاجيته من عنده وكان أيضاً جاره الذي يقطن بالطابق السفلي إذ أنّه كان شيخاً كبيراً في السن ولم تكن تربطه به أيّ صلة سوى أنّه كان يلقي عليه التحيّة من باب الاحترام وهو يقتفي الأدراج نزولاً من بيته، حيث كان هذا الشيخ معتاداً على الجلوس خارجاً في الرواق.

رفعوا جثمان أغويرو واقتادوه إلى المدفنة، إلى حيث سيرقد نعشه لبقيّة الحياة الراهنة، كانوا يمشوا صامتون في الشارع وكان سيلفيوس يرتعش في مشيته ضعيف القوام، شاحب الوجه، حيث كانوا هؤلاء الأربعة يسمعوا همسات سكّان الحيّ تتطاير حولهم فيتمتمون بين بعضهم وهم ينظروا إلى

هذه الجنازة التي لا تشبه الجنازات على الإطلاق:

ـمن هذا؟

ـ هذا الشاب الذي قلما يخرج من منزله.

ـ كان دائماً حزيناً بائساً متهكّم الوجه.

ـ إنّه هو ذاك الشاب الوحيد.

ـعاش بيننا سنين طوال ثم وافته المنيّة ولم نعرف إلى الآن ما اسمه حتى.

ـ يا له من كئيب!

ـ انظر إلى هذه الجنازة الصغيرة، هل من المعقول ليس له

أحد؟

ـ سمعت أنّه توفّي بأسباب غامضة لم يعرف سببها حتّى الأن.

ـ يا لصديقه المسكين، يبدو أنّه متأثرٌ به أشدّ تأثّر.

كم كانت هذه الأحاديث تشقّ على مسامع سيلفيوس، وكم كانت روحه تتخبّط بين أضلاعه، حقيقة الأمر أنّه كان بهذه الكلمات وهذا المشهد لا يتراءى له سوى تنفيذ حكم الإعدام بالمقصلة بحقّه لشدّة ما شعر من ذنب يأكل أضلاعه، حيث كان يخيل إليه أن هذا الجمع الغفير هم مساجين وشهود والمقصلة تبعد عنه بضعة أمتار، كان ينتظر لحظة انقسام روحه عن جسده وإطلاقها إلى السماء، فلو وخذته بإبرة لما سال منه قطرة دم.

انتهت مراسم الدفن وذهب الجميع ما عداه، ظلّ على عتبة اللحد ينتظر أن يتنهي كلّ شيء ويستيقظ من هذا الكابوس، لكنّه لم يك كابوساً، كانت حقيقة تدمع لها العين وينفطر لها القلب، ظلّ قرابة النصف ساعة بلا حراك يتفحّص تفاصيل لحدِ صديقه و زواياه، حيث أنّه لم يك قادراً على الحديث معه فهو ما زال غير مصدّق لما حدث، مازال لا يتخيّل نفسه يوماً بالقرب من صديقه وهو ميّت، وهو ردم من الرمال المكدّسة فوق بعضها والمسورة بأحجار رمادية تأخذ النفس إلى غياهب الموت، استفاق من غيبوبته أخيراً وشكّ في ذلك، لكنّه قرّر أخيراً أن يمسك بطريق الخروج، فمشى سيلفيوس في شوارع المدينة قاصداً بيته، لكن كان من الصعب أن يميّز شوارع المدينة من فرط حزنه وثقل روحه، يمشي ويطوي شارع إثر شارع، تائهاً بين الأزقّة لا يدري أين تقوده أقدامه، يفكّر ويفكّر، ويترجّع ذكرى أمس بفزع، وتتكرّر المشاهد وتتعالى الأصوات في ذهنه إلا أن تخور قواه ويجلس على قارعة الطريق منتحباً يلطم رأسه

ببطن كفّه، وأنظار المارّة لا تنجلي عليه حائرة مستغربة، فتتكاثر إشارات الاستفهام حوله إلا أن تدخل أحداً كان ينتظر الحافلة بالقرب منه، حيث كان شاباً يقترب كثيراً من عمر فقيدنا الراحل يلبس معطفاً طويلاً مصنوعاً من الجوخ أسود اللون ولثام أبيض لا يزيده إلّا بهاء و حبوراً، كان منظره لائق جداً وكأنّه ذاهبٌ إلى موعد مهم جدّاً، فاستأذن الغريب بوجل من سيلفيوس وألقى عليه التحيّة ففاتحه بالحديث بصوت أشبه بصوت طفل مرتبك:

_المعذرةً ياصديقي، كيف حالك؟.

لم يجب، ولم يكن يشعر بالواقع حتّى، كان مغيّباً تماماً عمّا يدور حوله، فألحّ الغريب عليه:

_صديقي... صديقي، ما بك؟ لعلّه خير...

رفع صديقنا رأسه ملتمع العين منتفخ الوجه من فرط البكاء، وظلّ صامتاً يتفرّس الغريب فاغراً فاه، حتّى إنّها أثارت فيه شيئاً من الخوف:

ـ أرجو المعذرة إن أزعجك سؤالي، لكنّني لم أكن قادراً على تجاهل الأمر، هل أستطيع أن أقدّم بعض المساعدة؟

ـ أغويرو، يا إلهي.!!! أغويرو... أهذا أنت؟

ـ آسف لكن لا، من يكون أغويرو؟

أمسك سيلفيوس الغريب من كمّه ورجّه يميناً وشمالاً وطفق يقول منفعلاً:

ـ كيف يمكنك الإسفاف بالوعود يا أغويرو؟. كيف يمكنك أن تتّشح باللون الأبيض وكلّ هذا العالم أسود؟

صحيح أنّ سواد هذا العالم هو ما ألبسك الأبيض لكن كيف أكون أنا من بعدك؟ كيف أمكنك أن تشهدني على تلك الرحلة، كيف؟
كيف أستطيع التخلّي عن ذلك المشهد، وعن أصوات الأنين الّتي في داخلي؟

ـ عذراً، من أغويرو ما الذي يحدث لك؟

كان صديقنا يشبه المتسوّل المجنون، بملامح لا تثبت، وشفاه تتلوّن بالألوان كلّها ما عدا الأحمر، كانت وجنتاه المنتفخة وعيناه الغارقة ووجهه الشاحب، والهالات السوداء الساكنة تحت عينيه لا تدلّ أبداً على إنسان طبيعيّ، كان منظر ثيابه المتّشحة بالطين، وشعره الطويل غير المهذّب تحكي قصّة أخرى عن تسوّله وفقدانه لعقله، حيث إنّ المارّة قد حسموا أمره، وتيقّنوا على أنّه مختلّ، فصاح يهتف ويتكلّم بلهجة غريبة وكلام يصعب على المرء فهمه:

ـ يصيح الضمير بأعلى صوت وافتك لهجة ولا أحد يسمع إلّا أنت، تعاد المشاهد وتتمزّق الذاكرة ولا أحد يشاهد إلّا أنت، تلتفُّ الحبال وتشدّ وترتفع الروح قبل المغيب ولا شروق يعود، في غرفة عتيقة على جرف شاهق ينسكب الظلام فيختفي كلّ شيء إلّا أنت، من أنت، من تكون؟ غداً لن تكون أنت، مجرم أنت... مجرم، لكن بحقّ من؟ بحقّ من يا أغويرو؟ بحقّ من؟

حيث أردف يقول بأسلوب بارد متقطّع:

إنّني أرتجف في مأواي وحيد، أتشرب الذكرى وتلتهمني، ربّما الوحش أنا، وربّما الضحيّة أنا، لكنّ النتيجة لا تتغيّر، نفس بلا نفس.

الفصل الرابع

نحيبُ أرواح (2)...

انتصب واستأنف الطريق إلى حيث لا يعرف أين، تائهاً في متّسع المدينة، وظلّ الغريب يلاحق سيلفيوس بأنظاره مستغرباً غير فاهم لما حدث إلى أن تلاشى وابتعد، يجول بالطرقات حانياً رأسه واضعاً يديه في جيبه زاهداً في غليان رأسه المكويّ من شدّة الأفكار، يناطح ألف سؤال، ويعود تائهاً منتفخ الرأس، متقطّع الأنفاس، هذه الحالة وهذا الشرود القاتم يؤدّي بالعقل البشريّ إلى حالة من الهيستريا، وكان صديقنا لا تفارقه مثل هكذا حالة، إذ يضرب وجهه بعرض الحائط، فيعود بلا ملامح، يتّفق أحياناً وهو في طريق بيته أن يحدّث نفسه، ويتمتم بأشياء غريبة على مسامع عابري السبيل بكلام غير مفهوم، أطال الطريق متعمّداً حيث لا يطيق الذهاب إلى المنزل لا يطيق ظلمته، ولا يطيق رائحته العفنة المليئة بالرطوبة، يرى نفسه حبيس هذه المدينة فعليك أن تتخيّل الغرفة الصغيرة الّتي لا تتجاوز مساحتها الخمسة وعشرين متراً الّتي كانت تأويه إنّها أشبه بقبر من أن تكون غرفة، كان يخيّل إليه أنّ السماء ليست

إلّا منديلاً يغطّي صومعة صغيرة، وأنّ الأشجار المتبعثرة هنا وهناك لا تكاد أن تغدو إلّا كخيالات منسوجة بألوان قاتمة تبعث الاشمئزاز في نفوس الناظرين، وأنّ كلّ ما يدور حوله ليس إلّا فلماً باهتا يسخر من كيانه، انطفأ نور الحياة من قلبه، وانطفأت روحه انطفاء ليس بعده إضرام، هكذا تموت النفس بغير جسد، هكذا تستسلم وتغرق في أود مستنقعها اللاذع الصاخب.

بدأت الريح تدقّ المسامير في وجه صاحبنا، وبدأ الطقس يسوء شيئاً فشيئاً، فتخلّى عن هذا السجن الواسع، واكتفى بوحدته وعزلته في غرفته المقيتة، تابع مسيره قاصداً منزله، حتّى وصل واستلقى على فراشه بدون أن يخلع نعليه حتّى نام نوماً عميقاً أشبه بميّت.

نام واستغرق في نومه قرابة العشرين ساعة حيث استيقظ آخر الأمر، وكانت تدقّ الساعة السادسة مساء، مصاباً

بحمّى شديدة تستبدّ بجسده الهزيل، وتنال منه بضربة واحدة، إذ إنّه كان غير قادر على النهوض من فراشه، كخرقة رثّة أعياه المرض، جسده يرتعش وحرارته تزيد عن الأربعين بدرجة أو درجتين، رعشات ساخنة وأخرى باردة تتالى وتسقط عليه فينتفض، ظلّ يومان متتاليين بلا طعام وبلا حراك، مستلقياً متعباً محموماً زاهداً يفكّر بمصيره الّذي آل إليه، وإلى أين سيقوده، وحيداً منعزلاً كقيثارة ملعونة لا يمكن العزف بها، على سرير خشبيّ مهترئ عتيق يلتفّ حول شرنقته ضعيف القوى منطفئ الشغف، تتوارى على ذهنه أفكار يولد منها صواعق تخرق كيانه فيحرق، يعوي ضميره متمرّداً على صاحبه يضرب سهام الذنب في أصقاع روحه، لقد قتل، لقد قتل أنبل إنسان ألفته نفسه بيديه، كيف لم يستطع منع هذا؟ كيف لم يتنبّأ بتلك المسألة؟ لم يحسب لها حساباً حتّى؟ كيف أسرف بسبر أغوار الحياة وكآبتها أمام شخص يتكلّم ليفضّ نزاعات روحه؟ فتزيدها تعقيداً؟ أهذا هو الصواب؟!

كانت فكرة الانتحار تراود أغويرو منذ زمن، ولكنّه لم يكن عازماً عليها كلّ هذه العزيمة إلى أن تغذّت هذه الفكرة، واشتدّ عزمها بما لقّنها سلفيوس بغير قصد منه، كان ينقصه القليل من الحكمة والنظرة الثاقبة في فكّ شيفرات الحديث، ولكن أيّ إنسان بائس يعيش كما يعيش سلفيوس يمكنه أن يغلّف الحياة بحليّ الزهو والورديّة، فكلاهما غارق في مستنقعه يستنشق رماد كيانه المتكسّر، ويتهيّب حصاد ألمه المحتقر، وعلى أيّ طرف يقع اللوم؟ على الحياة ومشقّتها؟ أم على نفوسهم الضعيفة وطريقتهم في فهمها؟ وعلينا أن نخصّ بالذكر أنّ ما كابدوه من عناء في الفترة الأخيرة يمكن أن يوازي شناعة ما قام به أغويرو من فعل.

خضلت هذه الأسئلة دماغ سيلفيوس ولم تهدأ، عاش هذان اليومين بصفعات تليها صفعات، يدور دماغه في دائرة مفرغة ومغلقة، إنّ الفكرة أحياناً، ومن فرط تقلّبها وتكرارها

تغدو جزورها في الأعماق صلابة الفولاذ للتّزحزحها قوّة بتاتاً، فما أن تشعل شرارتها حتّى تفصل حواسّك وإدراكك لما يحدث وتأخذ النفس تنفّذ ما أمليت عليها وما فرضته، بغضّ النظر عن سوء الفعل أو نبله، فقط لتعود إلى السكينة، فبدأت تسكنه هلاوساً تبلغ من الجنون للحدّ الذي يفقد العاقل إدراكه لهويّته.

هذا حال يرثى إليه حقّاً، أنين تصطفّ إليه براويز الحزن المتجلّية في هذا العالم، تتوقّف كلّ أنواع الشقاء، ولا يسمع لها صدى أمام شقائه، كانت تحاربه فكرتان متضادّتان متحاربتان فتّاكتان، يأكلون بنهم هستيريّ دماغ إنسان ضعيف، هشّ القلب مرهف الحسّ، ودائماً ما كانوا هكذا أشخاص يستبيحهم أقرانهم استباحاً تامّاً كأنّهم آلة تعمل لصالحهم، لمجرّد أنّ إحساسهم المرهف ومشاعرهم الدفّاقة تمنعهم من الرفض، أناس أخيار طيّبون لا يعرفون صلابة الحياة وصرامتها، لا يأبهون بعدد الأيّام الّتي تمضي، ما

يريدونه فقط هو أن يعيشوا بسلام وحبّ، وأن يكونوا على وفاق مع أيّ طرف آخر، يفضّلون الناس من حولهم أكثر من أنفسهم، يخدمونهم ويلبّوا نداءاتهم واحتياجاتهم بحماسة غريبة، ولا يلتفتون لأنفسهم إلّا بعد أن يكون قد سرف منهم ماسرف، يا لهم من أشقياء!.

هكذا عاش بطلنا أيّامه مهلوساً فاقداً عقله، لا ينتهي هذا السيناريو، ولا يستفيق من كابوسه الموحش هذا إلّا ليدخل إلى دوّامة أخرى متناقضة مفترسة، تزجّه وتدميه، وتطلقه كوحش، وتتقلّب أحواله وسريرته من الشعور بالذنب إلى الشعور بالوحدة والفقد، يتذكّر الأيّام الماضيات، ينتحب كطفل على ذكرى صديقه، ينظر إلى صورتهم الموضوعة على المنضدة بجانب سريره ويجهش، تعود وتسكنه الوحدة، ويألفه الظلام الساكن في غرفته كقرين، لمن يشكو كآبته، لمن يحكي قصّته، من عساه يدري بما حدث في نفسه، من يعتني به، يخيّل إلينا أنّه سيموت ميتة بطيئة

وحيدة ولا أحد في هذا العالم سيسمع أخباره، يموت ويستسلم بهدوء تاركاً روحه تسبح بحرّيّة مبتعدة عمّا يربط صلتها بالحياة والعقل البشريّ الفتّاك، لكن إلى أن توافيه المنيّة كيف يمكن أن يقضي حياته بأسرها بلا شخص يحدّثه، بلا إنسان يذهب إليه، لقد مات منذ لحظة وقوع الحادثة أمام عينه، مات روحاً وشغفاً وشعوراً، وينتظر سقوط جسده الدنيء في أغوار التربة المحظوظة الّتي ستلتحفه، يحارب سنينا عجاف يتذوّق الألم بكلّ جوانبه، من جان مريض، إلى فاقد وحيد، ومن فاقد وحيد إلى جان مريض، وهكذا دواليك، إلى أن تزفر الروح الزفرة الأخيرة معلنة خلاصها.

ترتبط الأفكار بالعقل ارتباطاً وثيقاً، فلا يسعها إلّا أن تقرع وتعذّب النفس احتقاراً وتهكّماً، هذا الجانب المؤذي من الحياة يتضخّم شيئاً فشيئاً في ظلّ الظروف المشينة والوحدة المفرطة، تسحب الأغلال لتكبّل به كلّ شعور قد يضيء أو يصدح في الأفق، وهذا الحال الّذي بقي عليه أغويرو إن لم يكن يضنيه فهو يعذّبه، يؤلمه، يرمي به إلى غياهب سحيقة من البؤس والشقاء، حتّى يبلغ الكدر أوجهه، ويطبق عليه بأسنانه حتّى تصرصر هي الأخرى من شدّة الألم، تتسرّب الأفكار ويتسرّب معها زوابع تقلع بنيان الحياة من أصلها، حتّى يضحّي آخر المطاف على شفير لحدٍ متجوّل يذرغ الأرض بغير هدى، بغير أمل.

تمت...

الفهرس

الفصل الأول: نحيبُ أرواح 8
الفصل الثاني: الخلاص 21
الفصل الثالث: ذنبٌ بلا ذنب 28
الفصل الرابع: نحيبُ أرواح (2) 38

Mouhamd Halapy

ترتبطُ الأفكارُ بالعقلِ ارتباطاً وثيقاً، فلا يسعُها إلّا أن تُقرِّعَ وتُعذّبَ النّفسَ احتقاراً وتهكماً.. هذا الجانبُ المؤذي منَ الحياةِ يتضخّمُ شيئاً فشيئاً في ظلِّ الظُّروفِ المشينةِ والوحدةِ المُفرطةِ، تُسحبُ الأغلالُ لتُكبّل كُلَّ شُعورٍ قد يُضيءُ أو يصدحُ في الأُفُق، وهذا الحالُ الذي بقيَ عليهِ أغويرو إن لم يكُن يضنيهِ فهو يعذّبه، يؤلمه، يرمي بهِ إلى غياهبٍ سحيقةٍ منَ البؤسِ والشّقاءِ حتّى يبلُغَ الكدرُ أوجُههُ، ويطبّق عليهِ بأسنانهِ حتّى تُصرصرَ هي الأُخرى من شدّةِ الألم.. تتسرّبُ الأفكارُ ويتسرّبُ معها زوابعٌ تَقلعُ بُنيانَ الحياةِ من أصلها، حتّى يُضحي آخرَ المطافِ على شفيرِ لحدٍّ متّجولٍ يذرعُ الأرضَ بغيرِ هُدىً، بغيرِ أمل..